البدع والخرافات والتقاليد والعادات

﴿ الواسطة والزيارة . أو ابن تيمية والسبكي ﴾

ذكرنا في الجزء الماضي ان بعض المشايخ المغرمين بحب الشهرة سعى بنشر رسائل في الواسطة الشخصية بين الله سبحانه وتعالى وبين عباده وكتب لذلك مقدمة جاء فيها بالتهافت والتناقض كأنه لا يفهم ما يكتب او يتوهم ان الناس لا يفهمون

اذا كان يعتقد ما قاله في اول المقدمة من ان نجاة الارواح انما هي في اتباع الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح من غير ادنى ملاحظة او اعتراض وامترسال مع العقل فلماذا الصق بالدين ما لم يرد في كتاب ولا سنة ولا قال به احد من الصحابة ولا ائمة التابعين وتابعيهم من المجتهدين وانما هي نزغات عقلية نسبت الى بعض العلماء لاجل ترويجها على ان من نسبت اليهم ليسوا بمعصومين ولا هم ممن يجب اتباعهم لذاتهم وانما توزن اقوالهم وافعالهم بميزان الشرع فما رجح منها قبل وما كان مرجوحاً ترك ورفض . هل جاء في كتاب الله او سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أمر ببناء القبور وتشريفها واتخاذ القباب عليها وجعلها في المساجد والصلاة اليها وطواف الناس بها كما يطوفون بالكعبة أم ورد النهي الصريح عن ذلك بما لا يحتمل التأويل ؟ هل نقل في حديث صحيح او حسن ان احداً من الصحابة رضي الله تعالى عنهم طلب من قبر النبي عليه افضل الصلاة

والسلام شيئاً مما يطلبه عامتنا اليوم من قبور المشايخ المشهورين بالولاية والصلاح او طلبوا منه الدعاء بقضاء حاجاتهم كما يزعم صاحب المقدمة ام قال احد السلف الصالح بذلك ؟ كلا ان صاحب المقدمة لا يقدر على هذه الدعوى ولكنه يزعم ان بعض علماء القرون المتوسطة قال بذلك . والنجاة انما هي في اتباع الكتاب والسنة على ما كان عليه السلف الصالح لا في اتباع هؤلاء الذين تدل رسائلهم التي نشرها على انهم قالوا ما قالوه بارائهم لانهم لم يستدلوا عليه بما يصح الاستدلال به ولانهم لا يميزون بين الحديث الصحيح والموضوع لان رسائلهم هذه مملوءة — كما قلنا — بالاحاديث الموضوعة والمنكرة

والذي استقر عليه اجتهاد الامام الغزالي بعد ما خاض في الفلسفة والتصوف وتوسع في الفقه والجدل والكلام ان السعادة في اتباع القرآن الكريم في العقائد وما اجمع عليه الائمة في الاعمال والاخذ بالاحتياط فيما اختلفوا فيه . ودعوى ان بعض الاموات يكونون واسطة بين الله وبين الناس يقضون حوائجهم باذنه مما يتعلق بالعقائد اولا وبالذات ثم بالعبادة ولم ترد في كتاب ولا سنة ولا قول امام مجتهد فالغزالي يحكم برفضها وانكارها حتماً . وان صحت عنه تلك العبارة الفلسفية في احتمال تأثير ارواح الموتى في عالم الشهادة فهي ليست من الدين وانما هي من النظريات الفلسفية ولا بد ان يكون رجع عنها كما يفهم من كتابه (القسطاس المستقيم) وغيره

والذي روّج غش امثال هذه الرسائل من المصنفات في سوق العامة وكثير ممن يلبسون لباس الخاصة هو التسليم لكل ما يعد تعظيماً للانبياء

والاولياء واخذه بالقبول توهما منهم ان البحث فيه او التوقف في قبوله يخل بالتعظيم . فما جاء في المقدمة لهذا الشيخ الازهري المقلد مانصه نقلاً «لو وضع شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم او سوطه او عضادته على قبر عاصٍ او مذنب لنجا ذلك المذنب ببركات تلك الذخيرة من العذاب وان كان في دار انسان او بلد لايصيب سكانها بلاء وان لم يشعر بها صاحب الدار او ساكن البلد فان اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم وهو في العقبى مصروف الى ماهو له منسوب ودفع المكاره والعقوبات مفوض من الله تعالى الى الملائكة وكل ملك حريص على اسعاف ما حرص النبي صلوات الله عليه بهمته اليه من غيره كما كان في حال حياته فان تقرب الملائكة بروحه بعد موته ازيد من تقربهم بها في حال حياته » اه النقل

ولكن هل يجوز لنا في تعظيم النبي عليه افضل الصلاة والسلام أن نقول عليه وعلى ملائكة الله تعالى ما لا نعلم ؟ كلا ان في هذه العبارة مسائل (١) من اين علم قائلها ان اهتمام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو في جوار الله تعالى مصروف الى آثاره التي في الدنيا . أليس الاقرب ان يكون مصروفاً الى مناجاة الله تعالى والانس بلقائه (٢) ان النجاة في الآخرة منوطة بحسب ما جاء في الكتاب والسنة بالايمان الصحيح والعمل الصالح وامر العصاة مفوّض الى الله تعالى « يغفر لمن يشآء ويعذب من يشآء » ولم يرد عنه صلى الله عليه وسلم ان وضع السوط او الشعر على القبر من اسباب النجاة فهل يجوز لاحد ان يزيد في دينه ما ليس منه بحجة التعظيم أم يجب الوقوف عند حدود الشريعة في الاحكام وفي التعظيم نفسه أيضاً ؟ (٣) لو كان وضع السوط او الشعر على القبر منجياً من العذاب لكان

الاجدر بذلك الاتصال به صلى الله عليه وسلم فى دار الدنيا وقد ورد فى الصحيح ان سعد بن معاذ الشهيد احد اكابر الصحابة مات بين سحر النبي ونحره متكئاً على صدره ومع ذلك اخبر صلى الله عليه وسلم بأن ضغطة القبر كان عليه شديداً. (٤) ان البلاد التى فيها من شعر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كالاستانة ومصر وغيرهما اصيبت بانواع من البلاء بل ان المدينة المنورة التى فيها جسده الشريف كله قد اصيبت بالوان من البلاء حتى ان الحرم الشريف نهب وربطت فيه الخيول.

وحسبنا فى تعظيمه صلى الله عليه وسلم ما علمنا الله ورسوله ككونه رحمة للعالمين وكونه على خلق عظيم الى غير ذلك مما لا يحصى. ولكن امثال هؤلاء المؤلفين يقولون بألسنتهم ماليس لهم به علم ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم. فعلينا ان نعتمد فى نجاتنا على تعليم الوحي من غير ان نزيد فيه بعقولنا واهوائنا او ننقص منه بالتأويل والتحريف. ولو صح فى معانى تلك العبارة شيء لا ينافيه الواقع ولا يصادمه الوجود لقبلناه على ظاهره والا وفقنا بينه وبين الواقع كما هي القاعدة الشرعية. وعدم ورود ذلك لا ينافى كونه صلى الله تعالى عليه وسلم فى أعلا مقام

ومن اغرب مزاعم صاحب المقدمة وافسد قياساته المساواة بين طلب المعونة من الاحياء وطلبها من الاموات فاذا كان لا يفرق بين الحي والميت وقد فرق بينهما الوجود والشرع والعقل افلا يجب عليه التفريق بين ما يطلب من الاحياء من التعاون وبين ما يطلب من الاموات. يطلب الاحياء بعضهم من بعض التعاون على الامور الكسبية باسبابها التى قرنها الله تعالى بها وامرهم بالتعاون عليها فى قوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى »

ويطلبون من الاموات ما لا تناله يد الكاسب بكلب المصالح او دره المفاسد من غير اسبابها التي قرنها الله تعالى بها وهذا النوع مختص بالله تعالى لا يستعان بغيره فيه كما لا يعبد غيره لقوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » — يطلبون من الاموات شفاء المرضى من غير معالجة ودفع البلاء من غير سببه . يطلبون منهم الانتقام من الاعداء الذين يعجزون عن الانتقام منهم كتلك المرأة التي كانت تدعو المتبولى بان يهلك الطبيب الذي عالج ابنها فمات عقيب معالجته . يطلبون منهم ان يردوا عليهم من ضل وتاه من اولادهم وما فرّ أو سرق من مواشيهم ويقدمون لهم النذور لارضائهم . يطلبون منهم بل ومن قديسي النصارى (كمار جرجس) ان يجبلوا العاقر الخ الخ

مثل هذه المطالب يعرفها الشيخ المقلد . صاحب المقدمة وكان يعدها وامثالها من الشرك كما سمعت ذلك منه باذني . وقد كان في مجلس ثابت باشا في بعض ليالي شهر رمضان فذكروا الوهابية فانتصر لهم وشنع على الذين يعظمون القبور ويطلبون منها ما يطلبون اقبح تشنيع ردّ عليه في المبالغة فيه الاستاذ الشيخ حمزة فتح الله والناس يسمعون «فما عدا مما بدا»؟

اعتذر هذا الشيخ المقلد في آخر مقدمته عن اكثر علماء هذا العصر فيما ينتقد عليهم من ترك ارشاد العامة واهمال فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بانهم بالقاء الدروس الشرعية في اكثر المساجد قائمون بذلك حق القيام . وهذا اعتذار غير صحيح كان يجب ان يخجل من كتابته فان اكثر المساجد خالية من الوعاظ والمرشدين . وقراءة بعض الكتب الصعبة للمجاورين في الازهر وما قرب منه كمسجد سيدنا الحسين ومسجد محمد

بك وبجامع المؤيد لا تغني عن العامة شيئاً لانهم لا يقدرون على ترك اعمالهم في النهار والهجرة الى هذه المساجد لاجل سماعها ولو قدروا لما فهموها فاذا اراد العلماء ارشاد العامة وتعليمهم دينهم فلينتشروا في جميع المساجد وليعلموهم ما تمس اليه حاجتهم في وقت يتسنى لهم الاجتماع فيه كما بين المغرب والعشاء

ثم عقب اعتذاره عن أولئك العلماء بذم القائمين بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر بزعمه انهم غير مخلصين واستدل على طعنه وقدحه فيهم بدليلين بل بشبهتين سخيفتين (احداهما) انهم لو كانوا مخلصين لكسيت اقوالهم جلباب القبول وهذا الدليل مردود عليه لوجوه احدها ان جهله بقبول ارشادهم لا يدل على نفيه فمن المقرر عند العلماء أن عدم العلم بالشيء لا يقتضي عدم ذلك الشيء في نفسه . ثانيها ان من الانبياء عليهم الصلاة والسلام من لم يتبعه احد ومنهم من اتبعه النفر القليل كسيدنا نوح عليه السلام . ثالثها ان سنة الله تعالى في قبول الارشاد ان يكون بالتدريج . وتعريضه بهم بأنهم أذلوا وأهينوا حجة عليه فهل جهل ما قاساه سيد المصلحين عليه الصلاة والسلام من النفي والطرد والسب والضرب وأن الناس لم يؤمنوا به بمجرد دعوتهم الى الايمان . ولو لقي دعاة الاصلاح الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر عشر معشار ما لقيه المصلح الاعظم صلى الله عليه وسلم لكان هذا الشيخ المقلد يستدل بذلك على كفرهم ويطفئ نار حسده بالتشفي منهم ولكن الله بفضله ورحمته اراد ان يؤيدهم ويؤيد بهم الدين ، ولذلك يزيدهم رفعة وعزة على مر الايام والسنين ، وذلك من رحمته وفضله على المسلمين ، واذا أُنظر هذا الشيخ ومُد في اجله فسيشاهد أثر أولئك المصلحين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان الا على

الظالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ،

(الشبهة الثانية) قوله : « ولو صدق هؤلاء فيما يزعمون لقاموا بالنهي عما اجمعت الامة على انكاره كالزنا والربا وشرب الخمر والمجاهرة بها وترك الصلاة والصوم » الخ . والجواب عنها انهم ينهون عن هذه المحرمات العملية ولكنهم جعلوا جل عنايتهم في النهي عن المنكرات في العقائد والاخلاق لانها الاصل الذي تبنى عليه الاعمال والى هذا الاشارة بحديث « الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » وكيف ينفع النهي عن الاعمال مع وجود مثل هذه الرسائل التي نشرها والمقدمة التي حبرها وفيها السم الذي يميت خشية الله تعالى من القلوب ويغري الناس بالمعاصي اعتماداً على الوسطاء الذين ينجونهم في الآخرة وان أساؤا بترك الفرائض وارتكاب المحرمات كما يقضون مصالحهم في الدنيا وان تركوا السعي والاسباب . نعم ان العامة اذا رأوا كتاباً كتب عليه انه للامام فلان ومقدمته للامام فلان يغترون بهذه الالقاب الضخمة ويأخذون ما فيها بالتسليم . فاذا رأوا فيها ما نصه : « الحديث التاسع : من حج حجة الاسلام وزار قبري وغزا غزوة وصلى عليّ في بيت المقدس لم يسأله الله عز وجل فيما افترض عليه » يتوهمون ان هؤلاء الائمة لا ينسبون الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما لم يقله ويجيزونه وينصحون الناس به وبناء على هذا يعتقدون ان عمل فريضة عينية كالحج على المستطيع وواجب كفائي كالجهاد وفعل آخر لم ترد به بخصوصه سنة تسقط سائر الفرائض عن الانسان بحيث لا يسأل عنها فاذا تسنى لاحد منهم ذلك وأمر بالصلاة وبالصوم لا يبالي لانه يعتقد ان الله تعالى لا يسأله عنهما . اذن انّ النهي

عن هذه الكتب وعن الالتفات لهؤلاء الذين يسمون انفسهم ائمة مقدم على النهى عن الزنا والخمر وعلى الامر بالصلاة والصوم. والحديث موضوع كما بينه صاحب كتاب « الصارم المنكى » وغيره وفى هـذه الكتب غير ذلك من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم واثمها على مؤلفيها وناشريها وعلينا النهى عن الاغترار بها والله الموفق

« قسم الموالد والمواسم »

منعت الحكومة المصرية الناس فى هذا العام من كثرة الاجتماع فى الموالد حيث لم ترخص للبغايا والراقصات ولباعة الحشيش واضرابهم من نصب خيامهم فى معاهد الاحتفال بالموالد والاحتراف بحرفهم الخسيسة الضارة خوفاً من انتشار الوباء وسريان الطاعون . وكانت تصرح فى الاجازات باقامة هذه الموالد بوجوب الاقتصار على اقامة «الشعائر الدينية» وعجيب من حكومة اسلامية ان تسمى البدع شعائر اسلامية سواء كان ذلك عن علم اوعن جهل فهي كما قال الشاعر :

اذا كنت لا تدرى فتلك مصيبة وان كنت تدرى فالمصيبة اعظم

ثم زعم بعض العلماء ان هذه البدعة حسنة اذا خلت من المحرمات والمنكرات ولكن لم يقل احد بانها من شعائر الدين ، كيف وكلها من اوضاع المتأخرين ، وهى تزيد وتتجدد حينا بعد حين ، ولم يعرف شىء منها عن السلف الصالحين ،وقد اعجبنا من رقعه الدعوة التى ارسلها الينا صاحب السماحة السيد توفيق البكرى شيخ مشايخ الطرق لحضور الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم تصديرها بتسمية ذلك « عادة » فحيا الله العلم والفهم